شعرية الوصف في أدب الرحلة – رحلة ابن بطوطة أنموذجا

قفصي فوزية
معهد اللغة العربية وآدابها
المركز الجامعي – الطارف

ملخص

عالجت الدراسة تقنية الوصف في أدب الرحلة واعتمدت رحلة ابن بطوطة أنموذجا؛ فعلى الرغم من ظهور العديد من الدراسات والمقاربات التي اهتمت بالسرد في المحكيات فإننا لا نجد في المقابل عددا كبيرا من الأعمال التي تناولت الوصف بالدراسة، خاصة وأنه لا يمكن لأي نوع من الأنواع السردية الاستغناء عن هذه التقنية بما في ذلك أدب الرحلة. أضاءت الدراسة العديد من الجوانب المتعلقة بهذه التقنية لا سيما في نصوص لم توصف قديما بالأدبية (كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ..) فعرضت لمفهوم الوصف ووظائفه وحدود علاقته بالسرد. اهتمت أيضا بعرض أنواع الوصف ومختلف أشكاله البلاغية وعملياته القاعدية بالاستشهاد في كل مرة بأمثلة مأخوذة من كتاب رحلة ابن بطوطة. استندت الدراسة إلى آراء العديد من النقاد والدارسين في مجالي السيميائيات والسرديات مثل فيليب هامون وجون ميشال آدام وغريماس وغيرهم.

الكلمات المفاتيح: أدب الرحلة، الشعرية، الوصف، السرد، الأشكال البلاغية.

Résumé

*Cette étude traite la technique de la description dans la littérature du voyage ,pris comme référence l'œuvre incontournable d'**Ibn Battouta;** et projette la lumière sur plusieurs aspects relatifs à cette technique, notamment dans des textes n'ayant pas eu par le passé ce caractère de littérarité(livres de voyage, de géographie et d'histoire…).Nous avons constaté que malgré l'apparition d'un nombre considérable d'études et d'approches s'intéressant à l'aspect narratif, l'absence d'études inhérentes à cette dimension descriptive ,particulièrement dans ce type de recherche dont ne peuvent se passer les textes littéraires; tels que dans l'épopée, la légende, la biographie. L'étude s'est également penchée sur les points de vue de plusieurs critiques et chercheurs en sémiotique qui se sont intéressés à la technique descriptive tels Philippe Hammon, Jean Michel Adam, B.john, Greimas, Joseph Courtes, Gérard Genette .*

Mots clés : Littérature du voyage, poetique, la technique descriptive, narration, forme rhétorique .

Abstract

The study deals with the technique described in the literature of travel and used as a reference work of Ibn Battuta and sheds light on several aspects of this technique, especially in texts that have not been by the character of the past literariness (travel books, geography and history ...) by the way, we found that despite the emergence of a considerable number of studies and approaches concerned with the narrative aspect we noted the lack of descriptive dimension inherent in this study, especially in this kind of research can not do without literary texts such as the epic, legend, biography ... which approach remains essential. She gave to the concept of aesthetic description and explanatory functions and limits of its relationship with the narration is interesting, moreover, the various types and descriptions leaning his rhetoricity with all its basic operations, quoting, whenever the work cited above. The study also examined the views of many critics and scholars in semiotics that are interested in such descriptive technique Philip Hammon, Jean Michel Adam, B.john, Greimas, Courtes Joseph, Gérard Genette, between ... other.

Keywords : Literature of travel, poetic, descriptive technique, narration, rhetorical form.

يندرج أدب الرحلة ضمن أدب السيرة الذاتية، فما الكاتب والرحالة والراوي إلا شخصية واحدة تبدأ مغامرتها برحيل لا بميلاد، ولا تجد الرحلة حلها صدفة وإنما تسعى لأن تحقق الرهان المتفق عليه مسبقا وهو الرجوع إلى نقطة الانطلاق، فعودة ابن بطوطة إلى مسقط رأسه في نهاية رحلته هي تحقيق لذلك الرهان. كما يمكن للمحكي في أدب الرحلة أن يتخذ شكل يوميات، أو رسائل، أو مذكرات، أو ذكريات سائح غير أنه قلما يؤسس على يوميات تنقل الأحداث ساعة بساعة، بل تتخذ هذه الأخيرة إطارا لكتابة لاحقة مع أنها قد تعود إلى الظهور بشكلها الأول، ويستعين بها الكاتب بعد تنقيحها في كتابة رحلته بعد عودته. من هذا المنطلق يحاول المحكي –على طريقة السير– أن يعطي إيقاعا ومعنى لمغامرة ما وأن يصنع من دقائق المصادفات كليات، كما توجد مسافات بين الذات الكاتبة والذات المرتحلة مثلما هي المسافات بين الحاضر والغائب[1].

وتتشابه مكونات الخطاب في أدب الرحلة مع مكونات الخطاب الروائي عامة إلا أنه تطغى في هذا المستوى بعض التقنيات الخاصة بكل نوع أدبي، بالإضافة إلى وجود اختلاف ظاهر بين الأدب التراثي والأدب الحديث من حيث طبيعة المادة وطريقة عرضها[2]، وسنعرض في هذا المقام للخطاب بوصفه الجزء الظاهر من أي عمل أدبي لا يمكننا إغفاله مركزين تحديدا على تقنية الوصف وحدود تداخلها مع السرد، يدفعنا إلى ذلك طغيان هذه التقنية –الوصف– على المستوى الخطابي في أدب الرحلة عموما وفي رحلة ابن بطوطة خصوصا، ويبدو أن النقاد العرب المحدثين لم يولوا عناية كبيرة للوصف مقارنة بالنقاد والبلاغيين القدامى من جهة، وبالنقاد والدارسين الغربيين من جهة ثانية.

ومرد ذلك غياب جهاز نقدي موروث خاص بالنثر، مما جعل التعامل معه سطحيا على الرغم من احتفاء النقاد القدامى بالوصف في الشعر، وهو ما دفعنا إلى تسليط الضوء على هذه التقنية باعتبارها مكونا نصيا جديرا بالدراسة والتحليل بالاستعانة بأدوات نقدية ووسائل تحليلية مناسبة لطبيعة الوصف وعاكسة لخصوصيته، مما يسمح بالوقوف عند الدور الذي يؤديه، والتأكد من خضوعه لمنطق يحكمه في رحلة ابن بطوطة.

يحاول كل رحالة أن يدعم حقيقة مشاهداته ويثبت صحة معلوماته التي يقدمها من خلال الكتاب الذي يخصصه لرحلته؛ والوصف هو ما يؤكد زيارته للأماكن والبلدان ويثبت لقاءه بالملوك والأعيان والشيوخ والأولياء، وقد جاء الوصف في مؤلف ابن بطوطة مركزا على أماكن جغرافية لها أبعادها التاريخية والحضارية وعلى أشخاص التقى بهم أو استمد ذكرهم من التاريخ .

والوصف لغة من وصف الشيء: حلاه وهو وصفك الشيء بحليته[3]. والوصف الأمارة اللازمة للشيء[4]، أما اصطلاحا فإن البلاغيين العرب لم يتطرقوا للوصف قبل القرن الثالث للهجرة على الرغم من أنهم مارسوه شعرا ونثرا منذ العهد الجاهلي، ولعل قدامة ابن جعفر هو أول من قدم تعريفا شاملا له في كتابه نقد الشعر إذ يقول: "الوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها ثم بأظهرها فيه وأولاها حتى يحكيه بشعره ومثله للحسن بنعته"[5].

فالوصف عند العرب يعكس الصورة الحقيقية للأشياء، وهو حاضر بقوة في الشعر دون النثر الذي لم يحظ بالقدر الذي حظي به الشعر، وأجود الوصف ذلك الذي يحيط بأهم الجوانب التي يرتكز عليها الشيء الموصوف، فيحول صورته المادية المألوفة إلى صورة أدبية ترتكز على نسيج أدبي متين، ويزينها أسلوب إنشائي رصين[6].

ولقد ساعد الوصف على معرفة مظاهر الحياة اليومية المختلفة عند العرب من خلال الشعر وحتى النثر الذي ظهر في مراحل متأخرة، ولعل أدب الرحلة من أبرز الأنواع السردية النثرية التي اعتنت بشكل واضح بوصف الأماكن والأشخاص وعادات الشعوب وتقاليدها في جميع مجالات حياتها؛ حيث يحرص كل رحالة على نقل الحقيقة من خلال توخي الدقة في تصوير الأشياء والأماكن والأشخاص ...

ولم يقتصر الوصف على هذا النوع الأدبي وإنما زخرت به مختلف النصوص الأدبية العربية والغربية "باعتبارها مخزونا لمظاهر الحياة المادية التي ظهرت في عصر تأليفها، فإذا أراد باحث أن يتعرف على حياة اليونان القديمة فإنه يعود إلى الملاحم الهوميرية، ومن روايات بلزاك وفلوبير يتعرف على ألوان الطعام وأشكاله في فرنسا القرن التاسع."[7].

كما يمكن أن نستشف ذلك في رحلة ابن بطوطة عند وصف مدينة دلهي حيث خصها بالعديد من المقاطع الوصفية التي تساعد المتلقي على استحضار صورة المدينة وجعله يتخيلها بنفس الصورة التي شاهدها ابن بطوطة أثناء زيارته لها، بيد أن الأكيد هو أن دلهي اليوم تختلف عن دلهي ابن بطوطة .

ويعد الوصف ضروريا لكل عمل درامي حيث يقول أمبرتو إيكو :"أعتقد أنه من أجل أن نحكي يجب قبل كل شيء أن ننشئ عالما و نؤثثه إلى أن نصل عند أبسط التفاصيل الدقيقة فيه، يجب تشكيل العالم أما الكلمات فتأتي فيما بعد وحدها تقريبا"[8]، ويقصد بتأثيث العالم تأسيس أفعال "ماذا" في مكان "أين" مع أشخاص "من" و في زمن "متى".

وقد يستعين الدارس بالوصف لأجل تقريب الصورة إلى ذهن المتلقي، بمعنى أن يعمد إلى إغفال التسمية ويلجأ إلى التعيين، يحيلنا كل هذا إلى مصطلح آخر وهو الإغراب؛ إذ يرى الشكلانيون الروس أن علاقتنا بالأشياء هي علاقة تعرف وليست علاقة رؤية، لأن التعرف ينتج عن علاقة حميمة تقتل الإبداع والتلقي الجمالي للأشياء والمحيط.

ومنه على المبدع أن يرى الأشياء وكأنه يراها لأول مرة ليجدد تلقينا لها وهو المنحى الذي تبناه ابن بطوطة في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار"، حيث اعتمد الرؤية في الوصف بدل الاختزال والاختصار وهنا نتساءل: ألا يثق ابن بطوطة بمعلومات القارئ؟ يبدو أنه يسعى إلى القبض على الزمن عبر تصوير مشاهداته للأماكن والأشخاص، وحتى يؤكد للمتلقي الذي يختلف عبر المكان والزمان حقيقة زياراته.

ولم يحظ الوصف عموما باهتمام النقاد، فعلى الرغم من ظهور العديد من الدراسات والمقاربات التي اهتمت بالسرد في المحكيات فإننا لا نجد في المقابل عددا كبيرا من الأعمال التي تناولت الوصف بالدراسة[9]، وحتى في أدب الرحلة الذي ظل لفترة طويلة محل مساءلة حول حقيقة علاقته بالأدب نظرا لارتباطه بالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا، ولم يتم تناول الوصف فيه مستندا إلى خلفية نظرية، حيث توجه الاهتمام إلى عناصر الخطاب الأخرى فأسقط بذلك الوصف من البحث والدراسة إلا ما قل وندر.

ويعرف غريماس وكورتيس الوصف على النحو التالي : "ندعو وصفا أيضا، في مستوى التنظيم الخطابي، مقطعا، على مستوى السطح، نجعله مقابلا لحوار أو لسرد أو لمشهد مع التأكيد ضمنيا أن خصائص الوصف الشكلية تسمح بوضعه ضمن التحليل الكيفي وفي هذه الحالة يجب أن يعامل الوصف على أنه تسمية مؤقتة لشيء يبقى في حاجة إلى تعريف"[10] ويعتبر بذلك الوصف النموذج المثالي للمفهوم غير المعرف أو غير القابل للتعريف.

وهذا ما يؤكده قول جينات في تعريفه للمحكي :"يتضمن كل حكي–سواء بطريقة متداخلة أو بنسب شديدة التغير –أصنافا من التشخيص لأعمال أو أحداث تكون ما يوصف بالتحديد سردا هذا من جهة، ويتضمن من جهة أخرى تشخيصا لأشياء أو لأشخاص، وهذا ما ندعوه في يومنا وصفا "[11].

ويبدو الفرق بين السرد والوصف من الناحية النظرية واضحا، لأن ما ينشده الوصف باعتباره تصويرا لحالات غير ما ينشده السرد باعتباره تصويرا لتحولات لتلك الحالات، لكن على المستوى العملي، يصبح الأمر صعبا، ذلك أن الوصف قد يكون على شكل نصوص كاملة بينما يختلف الأمر بالنسبة للسرد الذي يصعب عليه التخلي عن الوصف. ويتميز الوصف عند الواقعيين بأساليب تتوقف على طبيعة توظيفه في النص؛ إذ قد يوظف توظيفا موضوعيا فينظر للأشياء كما هي في الحقيقة، فيتتبع الكاتب كل العناصر المكونة لها كما قد يوظف الوصف توظيفا آخر يختلف عن الأول إذ ينظر إلى الشيء من حيث وقعه على القارئ أو المستمع[12].

وبهذا يتشكل موقفان متغايران في أسلوب الوصف، أما الموقف الأول فقد حاول الواقعيون الالتزام به إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك حيث جعلوا وصفهم تفصيليا وتصنيفيا والتزموا بالموقف الجماعي تجاه الشيء الموصوف، أما الموقف الثاني فقد تبناه أصحاب تيار الوعي كرد فعل على الواقعيين حيث وجدوا في الأشياء مجرد أصداء تعود إلى سطح الوجود بعد ترشيحها في نفس المتلقي وتلوينها بمزاجه الخاص؛ والمهم من كل ذلك هو القدرة على التمييز بين الوصف التصنيفي الذي يحاول تجسيد الشيء بكل جوانبه بعيدا عن إحساس المتلقي، والوصف التعبيري الذي يتناول وقع الشيء والإحساس الذي يثيره هذا الشيء في نفس المتلقي[13]. ويظهر النوع الأول جليا في رحلة ابن بطوطة، الذي يشخص الأشياء الموصوفة عن طريق تصويرها بالاعتماد على الملاحظة أو التجربة وعلى حقيقة الأشياء، ويترجم الواصف كل ذلك بواسطة الكلمات والمشاعر وفق القواعد التالية[14]:

– وصف أشياء تشغله أو أشياء يتذكرها كوصف الأمور العالقة بقوة في الذاكرة وهذا يحتم تعلم كيفية ملاحظة الأشياء[15].

– جميع الحواس تستثار بواسطة الأشياء، فتوصل إلى العقول أحاسيس مكثفة غالبا ما تكون متزامنة، وهذا يتطلب تعلم كيفية التمييز والتعيين: الأشكال، الألوان، الحركات، الأصوات، الروائح، الأذواق...الخ

– بالإضافة إلى أحاسيسنا الخاصة، توجد أحاسيس المتلقي تجاه الشيء الموصوف والتي يجب على المبدع الاطلاع عليها ومعرفتها لأنها تساعد بقدر كبير في الإلمام بجوانب ومميزات موضوع الوصف.

وتنعكس النقاط السابقة في رحلة ابن بطوطة لأنها في الأساس كتبت بعد عودته إلى موطنه فجاءت على شكل استرجاع وتذكر لما فات وظل

عالقا بذهنه، ففي وصفه لمصر[16] تناول على التوالي محطات رئيسية هي: التعريف بها، الحديث عن أقاليمها وسكانها، الوقوف عند عاصمتها (القاهرة) وملوكها، وصف فضل النيل عليها، الحديث عن المساجد والزوايا فيها، وأخيرا وصف الأهرام، فالمعلومات التي عرضها ابن بطوطة حول مصر كانت نتاج الملاحظة والوقوف عند حقيقة الأشياء بمساعدة الذاكرة التي تخزن الأشياء التي تعلق بها.

وظائف الوصف:

تنحصر وظائف الوصف عموما في وظيفتين رئيسيتين :

1- الوظيفة الجمالية : يؤدي الوصف في هذه الحالة عملا تزيينا يشكل استراحة في وسط الأحداث السردية، ويكون وصفا صرفا لا يتخلله سرد، وهو في هذه الحالة لا يساهم في التطور الدرامي للنص وإنما يضفي عليه جمالا فنيا[17]، كما فعل ابن بطوطة مثلا حين أفرد قرابة عشر صفحات لوصف مكة والمسجد الحرام، والوصف بهذا الشكل لا يفيد التطور السردي على الإطلاق وإنما يعطله تماما، وفي المقابل فإن وصف ابن بطوطة لمكة المكرمة والمسجد الحرام ينقل المتلقي إلى عوالم يتوق إليها قلب كل مسلم و يتمنى أن يقف عندها؛ فيضفي بذلك على النص جمالا وإبداعا.

يقول ابن بطوطة في وصف الكعبة: "وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض، وهي تتلألأ عليها نورا وإشراقا وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض، ومن عجائب الآيات في الكعبة الشريفة أن بابها يفتح والحرم غاص بأمة لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عليهم..."[18].

2- الوظيفة التفسيرية :"أي أن تكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي"[19]، وهذه الوظيفة تكاد تنعدم في رحلة ابن بطوطة، لأن الأهداف والغايات فيها ذات طابع تعليمي معرفي أكثر منها أدبية تجنح نحو الترميز والغموض، حيث يسعى ابن بطوطة إلى التوضيح والتبسيط حتى يتسنى للمتلقي التعرف على البلدان وسكانها وطباعهم وطريقة عيشهم...

وهناك من يحدد أربعة أشكال للوصف تتراوح بين هاتين الوظيفتين– الجمالية والتفسيرية–[20] هي:

– أن يكون المعنى محددا للوصف الذي يأتي بعده، وهو أضعف الأشكال الوصفية.

– أن يظهر الوصف قبل معنى من المعاني الضرورية في سياق الحكي و يكون الوصف في هذه الحالة بمثابة إرهاص للمعنى الذي سيأتي فيما بعد فهو إذا ليس إلا مرحلة نحو المعنى.

– أن يدل الوصف نفسه على معنى حيث يصبح في هذه الحالة في غير حاجة إلى تصريح بهذا المعنى قبل أو بعد الوصف، ومع ذلك فهو يظل خاضعا للتخطيط العام للسرد الحكائي .

– أن يكون الوصف خلاقا، وسمي خلاقا لأنه يشيد المعنى وحده أو على الأصح يشيد معاني متعددة ذات طبيعة رمزية، ويطغى هذا الشكل في بعض الأشكال الروائية المعاصرة و أغلب أنصار الرواية الجديدة يميلون إليه ويدافعون عنه.

وينتمي الوصف في الرحلة إلى الخانة الثالثة، فهو دال على نفسه وليس في حاجة إلى تلميح أو تصريح قبله أوبعده، ذلك أن ابن بطوطة عند الوصف يلجأ في البداية إلى تعيين الشيء الموصوف ثم ينتقل مباشرة إلى وصفه.

حدود العلاقة بين السرد و الوصف

يتموضع الوصف في المحكي باعتباره مستوى رئيسيا في الخطاب بجوار السرد ويتناقض الوصف مع السرد لأن الأول يبطيء حركة المسار السردي ولا يعني هذا التناقض نقصا بقدر ما يعني التكامل فكل منهما يكمل الثاني لأن وجود وصف خالص دون سرد قد يبعث الملل في نفس المتلقي، لأن النص سيصبح في هذه الحالة مجرد لوحات متراصة تعرض مشاهد متتالية ومختلفة، أما السرد فلا يمكنه على الإطلاق التخلي عن الوصف لأنه يعد مساعدا رئيسيا له، وبذلك يستحيل وجود سرد دون وصف، والعكس غير صحيح لأن الوصف قد يستغني عن السرد[21].

ويؤكد فيليب هامون أن" التعارض سرد/ وصف يشكل بالتأكيد جزءا من البديهيات الراسخة التي نلاحظها من خلال قراءاتنا المختلفة، وقد ميزت الكتب المدرسية بعناية بين هذين النمطين البارزين في النظام النصي، دون إثبات صحة هذا التمييز الطبيعي"[22]، فيحتوي كل محكي على صور من الأفعال والأحداث، تجسد السرد بمفهومه الدقيق، كما يشتمل كل محكي على صور من الأشخاص والأشياء والأماكن تمثل ما نسميه في الزمن الراهن وصفا[23]. وكذلك الحال في النص الرحلي حيث يتظافر السرد والوصف في تشكيله ليصيرا لحمة واحدة.

ويقدم جينات مثالين لصورتين مختلفتين من الخطاب السردي؛ الأولى تجسد الوصف الخالي من السرد والثانية تجسد السرد المدعم ببعض الوصف الذي لا قدرة له على التخلص منه، يقول: "المنزل أبيض بسقف من لوح مزرق وبمصراعين أخضرين"، ويعبر هذا المثال عن وصف خال من سرد بينما يختلف الأمر مع المثال الثاني :"اقترب الرجل من المائدة و أخذ سكينا". إنه نص سردي لأنه يتضمن فعلين من أفعال الحركة (اقترب، أخذ) كما أن الأفعال تحمل دلالات وصفية تعبر عن طبيعة الحركات التي يقوم بها الرجل وهذا يدل على تكافؤ الوصف فيها مع السرد[24].

وفي هذه الحالة قد يصبح الوصف أكثر ضرورة في النصوص السردية من السرد نفسه "ذلك لأنه أسهل علينا أن نصف دون أن نحكي، من أن نحكي دون أن نصف "[25]، وهذا يجعلنا نقف عند طبيعة العلاقة التي توحد بين وظيفتي الوصف والسرد:" فالوصف يجوز تصوره مستقلا عن السرد، بيد أننا لا نكاد نلقاه أبدا في حالة مستقلة، إن السرد لا يقدر على تأسيس كيانه بدون وصف، غير أن هذه التبعية لا تمنعه من أن يقوم باستمرار بالدور الأول، فليس الوصف في واقع الحال، سوى خديم لازم للسرد، وهو فوق ذلك خاضع باستمرار ومستعبد أبدا"[26].

ولا يمكن لأي جنس من الأجناس السردية سواء أكانت ملحمة أو حكاية أو قصة أو رواية الاستغناء عن الوصف، بل إننا نجده يحتل مكانة مهمة، وذلك دون أن يتوقف عن كونه مجرد مساعد للسرد، وفي المقابل لا وجود لأجناس وصفية يكون فيها السرد مجرد مساعد للوصف[27]. فعلى الرغم من أن رحلة ابن بطوطة يحتل فيها الوصف مساحة مهمة إلا أن السرد فيها يبقى مهيمنا.

ويمكن التعمق أكثر في عرض العلاقة التي تجمع السرد والوصف على النحو التالي:

1-الوصف من خلال الفعل:

1.1- وصف الشخصية من خلال أفعالها :

ويتم الاعتماد في ذلك على الأفعال التي تقوم بها الشخصية بدل التقديم المباشر للصفات المميزة لهذه الشخصية ولا يقتصر ذلك على الصفات

الداخلية دون الخارجية[28]. ولقد اعتمد ابن بطوطة كثيرا على هذه العملية في وصف الشخصيات التي شدت انتباهه من ملوك وسلاطين و عباد وصلاح كما أنه وصف الأفراد وحتى الجماعات ومثال ذلك وصفه لأهل دمشق يقول :

"وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد، وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأتى له وجه من المعاش من إمامة مسجد أو قراءة بمدرسة..."[29] يصف ابن بطوطة في هذا النص أهل دمشق موظفا أفعالا تميزت بالحركية والحيوية من ذلك: يتنافسون، يحسنون، يطمئنون، يتأتى...وهي أفعال قامت بأداء الدور الذي كانت ستؤديه الأسماء والأوصاف فقدمت صورة شاملة عن طباع وأخلاق أهل دمشق في نوع من الحركية السردية الواصفة.

1.2-الوصف الديناميكي لشيء:

- أنسنة الأشياء:

عند الوصف يمكن أنسنة الأشياء، ويتم ذلك وفق إجراء كلاسيكي أحدثه أئمة البلاغة و الأسلوبية منذ القديم[30]، حيث تصبح للأشياء أوصافا إنسانية، فتتحول من طبيعتها الجامدة إلى كائن متحرك، إن لم يكن إنسانا فهو شبيه بالإنسان ويوصف هذا الشيء بأوصاف من باب المجاز لا الحقيقة، إذ يلجأ الواصف إلى الأساليب البلاغية من كناية واستعارة وتشبيه... ليضفي عليه صفات إنسانية.

واعتمد ابن بطوطة في وصف مدينة حلب على قول أبو الحسين بن جبير: "قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير، خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير، فكم هاجت من كفاح، وسل عليها من بيض الصفاح، لها قلعة شهيرة الإمتاع ..[31]

إن أنسنة الأشياء يعني منحها صفات لا يتصف بها إلا البشر وجعلها تقوم بأفعال لا يؤديها إلا الأشخاص؛ فمدينة حلب وصفت بصفات إنسانية نسبت إليها أفعال لا يؤديها إلا البشر، فتجلت أحيانا كالعروس وأحيانا أخرى ظهرت بمظهر الغانية، وكانت أيضا تلك الفتاة التي يتهافت عليها الخطاب من الملوك ....

- تشكيل شيء:

عد هذا النمط الوصفي المتحرك منذ زمن بعيد من طرف البلاغيين والأسلوبيين النموذج أو الطريقة الوحيدة التي يتم فيها الوصف دون قطع صيرورة المحكي، ولعل أحسن نموذج أدبي يمثل هذا النمط ما يسمى بالوصف الهوميري نسبة إلى سارد الإلياذة والأوديسا ومثال ذلك الوصف الذي قدمه ابن بطوطة للطريقة التي يبني بها أهل جزر ذيبة المهل (جزر المالديف) بيوتهم حيث يصف العملية دون أن يوقف عملية الحكي .

وهناك من المنظرين من يعتبر هذا النمط من الوصف محكيا، أو على الأقل يعده وصفا مسردنا، وعلى العموم فمع أن هذا النمط من الوصف يضم نوعا من التطور الزمني إلا أنه لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن يتحول هذا الوصف للأفعال إلى متتالية سردية[32] .

2-وصف الفعل :

2.1- وصف وضعية أو حالة:

إن ما نسميه عادة لوحة أو مشهدا يختلف عن الوصف العادي ويختلف أيضا عن المحكي من حيث الفعل الموظف فيه والذي لا يفيد لا البداية ولا الوسط ولا النهاية. وكأنه نوع من التوقف الصوري، فهو عبارة عن عرض لأفعال ضمن ترابط زمني لأن الزمن متوقف[33]. ويظهر هذا النوع من الوصف

خاصة في الروايات حيث لا يكاد يوجد في المسرودات القديمة.

2.2- وصف حركة:

ويأتي وصف الحركة على شكل مقطع أو متتالية سردية من الحركات الزمنية المنظمة، وهنا قد يتعلق الأمر بمتتالية تعاقدية، وفي كل الحالات يخضع تنظيم الوصف للمبدأ التالي: إن أي حدث إجمالي يقسم إلى أحداث صغيرة متتابعة[34].

وعادة ما يتمظهر هذا النمط في الرحلة على النحو التالي، يقول ابن بطوطة :" وسرنا إلى أن وصلنا إلى مدينة قسنطينة .فنزلنا خارجها. وأصابنا مطر جود.. ورحلنا إلى أن وصلنا مدينة بونة ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما. ثم تركنا بها ما كان في صحبتنا من التجار.. [35]"

أنواع الوصف :

يتشكل أي نص من العديد من المتتاليات، وتهتم اللسانيات النصية بوصف الطرق المختلفة التي تنتظم وفقها هذه المتتاليات بمختلف أنواعها (وصفية، سردية، حوارية، تعليقية ...)

تتضافر داخل العمل الأدبي عموما، العديد من المتتاليات المتداخلة مع بعضها البعض مشكلة بنى متعددة تترتب وفقها هذه المتتاليات، ويساعدها في ذلك علاقات التضمين التي تبرز في بعض الأجناس الأدبية كالرواية، والقصة وغيرها، وتكون هذه البنى على النحو التالي[36]

(متتالية تعليق (متتالية وصفية)متتالية تعليق).

ويتعلق حضور الوصف داخل الرواية ببنية تتفق مع النموذج التالي:

(متتالية سردية (متتالية وصفية)متتالية سردية)

ويخضع الحوار في المحكي للنموذج التالي :

(متتالية سردية(متتالية حوارية) متتالية سردية)

كما قد يتضمن المحكي متتاليتين حواريتين مقابل متتالية سردية حيث يحدث العكس فتكون على النحو التالي:

(متتالية حوارية(متتالية سردية)متتالية حوارية).

وتغيب مثل هذه التداخلات المتعلقة بالمتتاليات الحوارية في رحلة ابن بطوطة لأنها تتأسس أكثر على متواليات ومقاطع وصفية مطولة تتخللها متواليات سردية.

وأكد فيليب هامون على أهمية المقاطع المهيئة للمتتالية الوصفية داخل المحكي، حيث لاحظ أن هناك ثلاثة أنواع بارزة من الوصف مقدمة عن طريق ثلاثة مقاطع صانعة للحدود (الفاصلة بين ما هو سردي وما هو وصفي)[37].

1- الوصف من نوع رأى: وبديلاتها (سمع، شم) ويكون على الشكل التالي:

الشخصية العماد+ توقف+فعل إدراك + مكان شفاف + موضوع للوصف

1	2	3	4	5
تعليق	ظرف	مسند إليه	ظرف	منفعل/موضوع

ويمكن أن نرتب هذه الوحدات حسب الأهمية على النحو التالي:5+3+1+(2+4)

فالأهمية ترجع أولا لموضوع الوصف ثم لفعل الإدراك (رأى، شم، سمع) ثم للشخصية العماد والتي غالبا ما تكون الشخصية التي تدرك ومن ثم تقوم بعملية الوصف. أما الظرفان 2و4 فأهميتهما مقصورة عن كونهما قد يمثلان الزمان والمكان

اللذين يتم فيهما الوصف مثلا، ويمكن الاستغناء عنهما معا أو عن أحدهما.

وهو نوع حاضر في المتن المدروس، حيث يعد ابن بطوطة الشخصية العماد التي ترى وتشعر بكل ما تقع عليه حواسها فتصفه، ومن ذلك قوله:

".. فوصلنا إلى مدينة ماردين وهي عظيمة في سطح جبل، من أحسن مدن الإسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا، وبها تصنع الثياب المنسوبة إليها من الصوف المعروف بالمرعز، ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها..." [38] ص252.

فالشخصية العماد في المثال السابق تمثلت في شخص ابن بطوطة أما فعل الإدراك فلم يذكر صراحة وإنما نفهمه، وتمثل موضوع الوصف في الموضع المسمى "واقصة".

2- الوصف من نوع فعل :

ويتكون هذا النوع من الوصف من الوحدات التالية:

شخصية حيوية +شخصية شاهدة + فعل حركة + موضوع وصف

4 3 2 1

فمثلا إذا أراد كاتب وصف الطريقة التي تبنى بها السفن أو القوارب، فمعنى ذلك أن عليه وصف عملية البناء وكأنها تتم أمامه. وهذا يستلزم شخصية حيوية تتمثل في العمال الذين يبنون القارب ووجود شخصية شاهدة و شخصية الكاتب و فعل الحركة (مجموع الأفعال التي يقوم بها العمال أثناء عملية البناء) وأخيرا موضوع الوصف وهو القارب، ويتشابه ذلك مع وصف ابن بطوطة لطريقة بناء البيوت في جزيرة ذيبة المهل حيث يقول: "..وبنيانهم بالخشب، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات، لأن أرضهم ندية، وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة، ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يضعون الحيطان من الخشب.."[39]

ج- الوصف من نوع قال :

و يقتضي وجود هذه الوحدات

شخصية جاهلة + شخصية عالمة و ثرثارة + فعل الكلام + موضوع الوصف .

4 3 2 1

يشترط هذا النمط وجود شخصية جاهلة تستفسر عن موضوع قابل للوصف فتحاول الشخصية العالمة توضيح ذلك بمساعدة أفعال الكلام مثل قال وهو ما نلاحظه عند قول ابن بطوطة في وصف دمشق: "ودمشق هي التي تفضل جميع البلاد حسنا وتقدمها جمالا، وكل وصف و إن طال فهو قاصر عن محاسنها..."[40] المصدر ص 104 واعتمد في المقابل على وصف أبو الحسن ابن جبير الذي أطال الحديث عنها.

الأشكال البلاغية للوصف:

خضع الوصف في البلاغة لتصانيف محددة وضوابط صارمة وهي محصورة عادة في الأصناف السبعة التالية[41]:

1-وصف الأشخاص وعاداتهم وتقاليدهم :

يتطلب وصف شخص توظيف كل مصادر المعرفة المتوفرة لرصده في مظاهره العامة وفي خصوصيته الذاتية بكل أجزائها وجزئياتها، وحركاته وعاداته في المأكل والملبس والمسكن وكل اهتماماته المختلفة، ولا يمكن أن يقتصر الاهتمام على الجوانب المادية في الشخص وإنما يجب الاهتمام أيضا بوصف جوانب أخرى غنية مثل طريقة التفكير، والمشاعر والأحاسيس وعواطف الحياة الإنسانية، فالأمر الأكيد هو أنه لا يوجد شخص يشبه شخصا آخر بشكل كامل لأنه وإن وجد هذا الشبه الجسدي (حالة التوأم الحقيقي مثلا) فإن الاختلاف سيكمن حتما في الأخلاق والمشاعر والأذواق وأمور كثيرة أخرى، ومنه فكل شخص أو كائن بشري يتمتع بخصوصيات تؤهله لأن يكون متفردا ومختلفا عن بقية البشر، ومن خلال الوصف نتعرف على هذا الكائن من جميع الجوانب المادية والروحية والخلقية والجسدية .فذكر كل هذه الطبائع و الأخلاق والصفات في عملية الوصف تساعدنا في التعرف على الأشخاص، و يتم ذلك عبر مراحل نذكرها على التوالي:

أ-مقدمة يتم فيها التعريف بهوية الشخص الموصوف.

ب-وصف المظهر الخارجي (الجسد).

ج-وصف اللباس.

د-السلوك و الطبائع.

والمطلع على رحلة ابن بطوطة سيلاحظ بلا شك التدرج المعتمد في الوصف فهو لا يقدم المعلومة دفعة واحدة ولا ينطلق من الداخل بقدر ما يتجه من الخارج، ثم يقرب الصورة شيئا فشيئا.

ويتمثل ذلك في وصفه لأهل الصين حيث يقول: "وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام، ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود، وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان، وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها.. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب، ويبيعونها في أسواقها.."[42] ؛ فنراه يتعرض في البداية للديانة الصينية (الوثنية) مشيرا إلى الأقلية المسلمة التي تتمتع بكل حقوقها الشرعية، ثم يعرج إلى طعامهم وأوضاعهم الاقتصادية ثم يتحدث عن لباس الفقراء ولباس الأغنياء ويركز بعدها على أعمالهم، حيث وصفهم بأنهم أكثر من يتقن الصناعة وفن التصوير، وما يلفت الانتباه أنه لم يحاول وصف أجسامهم وما يميز الصينيين من حيث البنية الجسدية ولون البشرة وهي ملاحظة تنطبق على معظم الأوصاف التي قدمها؛ فهو لا يتعرض على الأغلب للخلقة بقدر ما يهتم بالأخلاق والعادات والطباع ..الخ وقد يفسر ذلك انطلاقا من الخلفية الدينية لابن بطوطة الذي لا يؤمن بوجود فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى فكل البشر خلقهم الله فأحسن خلقهم، فالخلقة إذا ليست معيارا للتفريق بين البشر(من منظور ابن بطوطة)، لهذا لا نراه يتعرض إلى الأوصاف الجسدية إلا إذا استدعى المقام ذلك.

2- وصف الأماكن :

ولعل الأماكن هي أكثر الأمور التي شدت انتباه ابن بطوطة، فلا تكاد توجد مدينة زارها ولم يصفها أو يتحدث عنها، ومن ذلك وصفه لمدينة دمشق وحلب ومكة المكرمة والمسجد الحرام والقاهرة ودلهي والصين ...الخ، فالمكان يتسم بالثبات والاستقرار على خلاف الزمان الذي يتسم بالتحول والاندثار،

ويسمح المكان باسترجاع ما مضى من أحداث، فلم يقتصر ابن بطوطة على وصف المدن بل كان يقرنها بأهم الأحداث التاريخية التي مرت بها، وبأشهر ملوكها وحكامها، وعليه فالمكان نافذة يطل منها ابن بطوطة على التاريخ.

3- وصف الزمن :

وصف الزمن هو محاولة للقبض عليه، فنحن عندما نصف أحد فصول السنة مثلا فإننا نحاول أن نستحضر ذلك الفصل ومن ثم القبض عليه واحتجازه ضمن الألفاظ والكلمات، وقد يتمثل وصف الزمن أيضا في وصف مرحلة تاريخية معينة أو عمر معين كالطفولة أو الشيخوخة. وتصف لنا الرحلة المرحلة التاريخية التي عاصرها ابن بطوطة ونقلها عبر صفحات كتابه، فبمجرد قراءة صفحة من الكتاب حتى يستحضر القارئ الزمن الذي كتبت فيه وهو العصر الذي عانت فيه الدولة الإسلامية من الانقسامات والانفصال والتشتت.

4- وصف الحيوانات:

وصف ابن بطوطة أنواعا عديدة من الحيوانات منها الواقعي كالجمال والفيلة والخيول والأسماك... ومنها الخرافي كطائر الرخ، يقول:"...ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر، فعجبنا من ذلك ورأيت البحرية يبكون ويودعون بعضهم بعضا، فقلت ما شأنهم ؟ فقالوا: إن الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا أهلكنا وبيننا وبينه إذاك أقل من عشرة أميال ثم إن الله من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه."[43].

ولم يفصل ابن بطوطة الحديث في وصف الحيوانات بل يكتفي بالتركيز على ما يميز الحيوان عن غيره، حيث يقول في وصف وحيد القرن: "...فخرج علينا الكركدن، وصورته أنه حيوان أسود اللون، عظيم الجرم، رأسه كبير، متفاوت الضخامة، ولذلك يضرب به المثل "الكركدن رأس بلا بدن" وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف، وله قرن واحد بين عينيه.."[44].

5- وصف النباتات :

اهتم ابن بطوطة أيضا بوصف النباتات المزروعة منها والبرية وعادة ما يهتم بالشكل الخارجي للنبات أو البذور من حيث الحجم والنوع واللون ثم يعرض للطريقة التي يزرع و يجمع بها ومن ثم طريقة طبخه وأكله، وفي حديثه عن الزراعة في الهند يقول: وليس هنالك من أشجار بلادنا شيء ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص، شديد الحلاوة. ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها. فمنها العنبة، وهي شجرة تشبه أشجار النارنج، إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا، وظلها أكثر الظلال، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك، وثمرها على قدر الإجاص الكبير..."[45] .

العمليات القاعدية للوصف عند ابن بطوطة :

اتفق الدارسون على أن الوصف يخضع غالبا لقواعد ذكرها ج. م.آدم على شكل عمليات قاعدية، هذه القواعد هي [46]:

أ- عملية ترسيخ أو تعيين .

ب- عمليات التمظهر.

ج- عمليات التموضع ضمن علاقة .

د- عملية إعادة التركيب أو إعادة البناء .

وضمن هذه العمليات تتم هذه الخطوات :

1-تسمية الموضوع الخاضع للوصف بصفة عامة .مثلا يقول ابن بطوطة :ثم وصلت إلى جدة (ثم يصفها). تسمية ثم وصف.

2-تقسيم الكل إلى أجزاء، يقول ابن بطوطة في وصف موكب السلطان :"ولما كان صباح العيد

ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها ...وركب أولاد السلطان ...وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة ..."[47].

3-توضيح صفات وخصائص الأجزاء المقسمة. ومثاله في الرحلة ما جاء في وصف احتفال أهل مكة بقدوم شهر رمضان حيث قسم الكل إلى أجزاء وخص كل جزء بالوصف:

"وإذا هل هلال رمضان تضرب الطبول...ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرام نورا ويسطع بهجة وإشراقا وتتفرق الأئمة وهم الشافعية والحنبلية والحنفية والزيدية، وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة و يوقدون الشمع ..."[48].

4- منح موضوع الوصف إطارا زمنيا ومثال ذلك وصف ابن بطوطة لموكب السلطان يوم العيد.

5- منح موضوع الوصف إطاره المكاني ومثال ذلك وصف مكة المكرمة.

6- تشبيه مقارني أو مجازي يسمح بوصف الكل أو الأجزاء وذلك بوضعها في علاقة تماثلية مع أفراد أو أشياء وأخيرا يتم إعادة وبناء الشيء الموصوف حيث يمكن إعادة تسمية الشيء الموصوف في وسط أو نهاية الوصف، ومثال ذلك الوصف الذي قدمه ابن بطوطة لمدينة دمشق حيث شبهها بالمرأة التي يتكاثر عليها الخطاب من الملوك ويشبهها تشبيهات كثيرة فجعلها جنة المشرق وعروس المدن[49] .

لقد اهتم ابن بطوطة في رحلته بوصف كل ما تقع عليه عيناه وما يثير انتباهه، ولا تقل دقة وصف الأمكنة عن دقة وصف البشر، وإن كان تغليب الثاني على الأول واضح؛ إذ اهتم بعادات الشعوب وتقاليدها الاجتماعية والاقتصادية والدينية وفي كلياتها بعدها مجتمعا كاملا وفي جزئياتها باعتبارها تنقسم إلى رجال ونساء، حيث لم يتوان عن الحديث عنهن فوصف علاقتهن مع بعضهن ومع أزواجهن وأبنائهن كما لم يغفل الحيوانات الغريبة التي أثارت عجبه وكان للنبات أيضا الحظ الأوفر من الوصف، وعليه مثلت الرحلة التي قام بها ابن بطوطة شكلا من أشكال الانفتاح على الآخر.

ومما سبق نخلص إلى أن الوصف في كتاب "تحفة النظار في غرائب الأمصار" لابن بطوطة يقف بجانب السرد في تشكيل المتن، يمتلك عوامل الانتظام الداخلي من حيث التركيب المنطقي والتماسك الدلالي والشكل البنيوي، فالبنية الوصفية تقوم على نوع من التركيب المتلائم، يحكمها نظام دقيق قوامه الترتيب، فليس الوصف وليد الصدفة بل يخضع لبنى مدروسة، إنه يؤدي في المتن أدوار جمالية وتفسيرية غايتها نقل المعرفة وإمتاع المتلقي، ويحتل مساحة ظاهرة من النص قد تستغرق في بعض الأحيان صفحات متوالية دون توقف، يكاد ينعدم فيها التطور السردي العام، مما يؤكد لحمة المقطع الوصفي واستقلاله لغويا وتركيبيا ودلاليا.

الإحالات

1-encyclopedie universels. France.2002.p2.

2-محمد رياض وتار، توظيف التراث في الرواية العربية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2002، ص205.

3-ابن منظور، لسان العرب، المجلد التاسع، مادة وصف، دار صادر، بيروت، ص 356.

4-ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، المجلد 6، دار الجيل، بيروت، ض115.

5-قدامة ابن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، ص62 .

6-عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، 1998، ص285.

7-سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، بيروت، لبنان، ط1975،1، ص108.

8-J.M.Adam et François Revaz : analyse des récits.seul.1996Kp108.

9-J.M.Adam et Petit Jean le texte descriptif, Nathan, France, 1998, p3.

10-A.J.Greimas et Joseph Courtes : sémiotique, dictionnaire résonné de la théorie du langage, hachette, 1993,92.

11-حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1991، ص78.

12-J.M.Adam et Petit Jean, le texte descriptif, p 3.

13-سيزا قاسم، بناء الرواية، ص108، 109.

14-J.M.Adam et P.Jean, le texte descriptif, p 26.

15-محمد أولحاج، ديداكتيك التعبير، تقنيات و مناهج، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 2001، ص106.

16- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار، شرح طلال حرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1992، ص 55.

17-جيرار جينات، حدود المحكي، مجلة آفاق، إتحاد كتاب المغرب، ع8، 1988، ص60.

18- المصدر السابق، ص 156.

19-جيرار جينات، حدود المحكي، ص60.

20-حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص79-80.

21-جيرار جينات، حدود المحكي، ص59.

22-Philipe Hamon, introduction à l.analyse du descriptif classique, Hachette, 1981, p42.

23-جيرار جينات، حدود المحكي، ص59.

24-المرجع نفسه، ص59.

25-" " " "

26-" " " "

27-" " " "

28-J.M.Adam et F.Revaz, l.analyse des récits, p37.

29-المصدر السابق، ص 122-123 .

30-J.MAdam et F.Revaz, analyse des récits, p37.

31-المصدر السابق، ص88.

32-J.M.Adam et F.Revaz, l.analyse des récit, p38.

33-Ibid, p39.

34- Ibid, p39

35-المصدر السابق، ص 33.

36-op, cit, p93.

37-Ibid, p93.

38-المصدر السابق، ص252.

39-المصدر نفسه، ص 582.

40- المصدر نفسه، ص 104.

41-J.M.Adam et F.Revaz, l.analyse des récit, p32.

42-المصدر السابق، ص 630.

43-المصدر نفسه، ص649.

44- المصدر نفسه، ص415.

45- المصدر نفسه، ص 426.

46-J.M.Adam et F.Revaz, l.analyse des récits, p32-33.

47-المصدر السابق، ص260.

48-المصدر نفسه، ص352 .

49-المصدر نفسه، ص104 .